ظهر حديثاً

قطوف للأستاذ عبد العزيز البشرى (دار الكاتب المصرى)

أما أهله الأقربون وذوو مودته من الأصدقاء والخلان ، فيذكرونه كما كانت الخنساء تذكر صخراً أخاها ، وتذوب أنفسهم حسرات كلما ذكروه ، حتى يكاد الحزن ينتهى بهم إلى اليأس ، كما كانت الخنساء تلقى وتشقى كلما ذكرت أخاها صخراً ، وكما صورت الخنساء ذلك أحسن تصوير وأبعده أثراً فى النفوس وأشده وقعاً فى القلوب حين قالت :

يذكرنى طلوع الشمس صخراً
وأذكره لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولى
على إخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل أخى ولكن
أسلى النفس عنه بالتأسى

وصنع الله لأهله الذين يذكرونه حين تطلع الشمس وحين تزول وحين تهوى إلى مغربها ، ولأصدقائه الذين يذكرونه فى تلك الساعات التى كانوا يلقونه فيها ، فى ساعات العمل وجه النهار ، وفى ساعات الفراغ من آخر النهار ، وفى تلك الساعات الحلوة من أول الليل حين يتخفف الناس من أعمال النهار وأثقاله ، وحين يرسلون أنفسهم على سجيتها ، فتفرح وتمرح ، وتعبث وتمزح ، وتخوض فى كل فن من فنون القول ، وتجول فى كل ميدان من ميادين التفكير .

فقد كان عبد العزيز رحمه الله أباً برًّا ، وأخا وفيا ، وصديقا حميما . وكان من أجل هذا كله محببا إلى النفوس أثيراً فى القلوب ، عزيزاً على الأهل والأصدقاء جميعا .

والشمس تشرق وتغرب فى كل يوم ، والليل يغمر الكون وينجلى عنه فى كل يوم أيضاً ، وفى اختلاف الليل والنهار وفى تتابع الأيام والأشهر والسنين ما يجلو عن النفوس غمراتها ، ويفرج عن القلوب حسراتها ، ويعزّى الأحياء عن الأموات ، وينسى الأحياء بعضهم بعضا . ولكنى أعتقد أن اختلاف الليل والنهار ، وتتابع الأيام

والأشهر والسنين، وتعاقب الأحداث الجسام والخطوب العظام واشتغال الناس بما يسرهم وما يسوءهم من شؤون الحياة — كل ذلك وأكثر من ذلك ليس من شأنه أن يعزى عن عبد العزيز أهله الأقربين وذوى مودته من الأصدقاء والأخلاء. فقد كان عبد العزيز رحمه الله من هذه القلة القليلة النادرة التى امتازت بخفة الروح وعذوبة النفس ورقة الشمائل، والتى ظفرت من هذه الخصال بحظ غريب فى طبعه وفى جوهره وسادته، إن صح هذا التعبير، بحيث لا يبلو الانسان أقله إلا كلف به أشد الكلف وافتتن به أشد الافتتان، وأصبح لايستطيع له نسيانا، ولا يجد عنه سلوا مهما يلم به من الخطوب، ومهما يختلف عليه من الظروف.

وقد عرفت أنا من هذا الطراز قلة قليلة استأثر الله ببعضها، وأرجو أن يطيل الله بقاء بعضها الآخر. ومن هذه القلة التى آثرها الله بجواره الكريم ثلاثة نفر كانوا أجلاء فيما بينهم، وكانوا أصدقاء لكل من عرفهم أو اتصلت به أسبابهم من الناس، وهؤلاء الثلاثة هم: شاعر النيل حافظ إبراهيم، وكاتب النيل عبدالعزيز البشرى، وطبيب النيل على إبراهيم. كلهم كان عذب النفس، حلو الروح، كريم السجية، مهذب الطبع، مترف الذوق، مرهف الحس، رقيق الشمائل. وهم من أجل ذلك كانوا متوادّين متحابين، لا يفترقون إلا ليلتقوا. ولولا أن خطوب الحياة كانت تفرقهم على كره منهم لما آثروا على اجتماع شملهم شيئاً. وكانوا على ذلك أصدقاء للناس جميعاً، لا يعرفون البغض ولا تطمئن نفوسهم إليه؛ لأن نفوسهم خلقت من معدن الحب وفطرت على على سجية الاخاء والوفاء وحسن المعاشرة. ولذلك لا أعرف أحداً من الذين عرفوا هؤلاء الثلاثة — وما أكثر من عرفهم ووصل أسبابه بأسبابهم — قد تعلّق على واحد منهم بكلمة مؤذية أو خطة مؤلمة أو عمل يحزن أو يسوء. وإنما نحن نذكرهم جميعا فيمزق الأسى قلوبنا، وتفرق اللوعة نفوسنا. ولا نكاد نذكرهم مجتمعين أو متفرقين حتى يأخذنا الشجا لفقدهم، وتبتسم نفوسنا الباكية لما تذكر من أعمالهم وأقوالهم؛ فهم كانوا ابتساما على ثغر الحياة فى مصر مهما يكن حظ الحياة فى مصر من العبوس والحرج ومن النكر والضيق. وهم كانوا كغيرهم من الناس يحسنون ويسيئون،

ولكنهم لم يسيئوا تعمدا للاساءة قط، ولم يسيئوا إلا كانت إساءتهم مهما تقس فى أول أمرها مصدر رضا وغبطة وفكاهة ودعابة بعد وقت يقصر أو يطول.

وكلهم نفع الناس فى حياته كأحسن ما يستطيع الانسان أن ينفع الانسان. وكلهم وجد فى نفع الناس لذة ومتاعا، ولم يحفل بما جنى الناس عليه ولا بما جرعوه من فنون الألم وضروب الشقاء. كانوا لا يغضبون إلا ليرضوا، ولا يبتئسون إلا ليبتهجوا، ولا يعبسون إلا ليبسموا. فطرت نفوسهم على التفاؤل، أو خلقت نفوسهم من التفاؤل؛ فلم يعرف التشاؤم إليها سبيلا، ولم يلق الناس منهم إلا خيرا.

كان حافظ يمتع الناس ويحيى نفوسهم بشعره الرائع. وكان على إبراهيم ينفع الناس ويحيى نفوسهم وأجسامهم بفنه البارع وعلمه الواسع وتفوقه الرفيع. وكان عبد العزيز يسحر قلوب الناس ويستهوى ألبابهم، ويملك عليهم أمرهم، وينسيهم صروف الحياة، ويعزيهم عن آلامها بمحضره دون أن يتكلم. فاذا تكلم فقد كان يرقى بهم من عالم إلى عالم وينقلهم من حياة الى حياة. فاذا كتب ونشر فقد كان يأخذ عليهم سبل الاعجاب، ويضطرهم إلى أن يقرءوا ويقرءوا منفردين قد خلوا إليه دون غيره من الناس. فاذا لقى بعضهم بعضا تحدثوا عما قرءوا ثم أعادوا القراءة، ثم أخذوا يذهبون من الاعجاب بما يقرءون كل مذهب، يسلكون من هذا الأعجاب سبل الجد وسبل الفكاهة، وربما شغلوا أنفسهم بذكر عبد العزيز فى مجلسهم كله حتى يتفرقوا ولم يقضوا منه العجب.

أما أهله الأقربون وذوو مودته من الأصدقاء والخلان، فيذكرونه مصبحين ويذكرونه ممسين، لا ينسونه ولا يتعزون عنه، فليس إلى نسيانه أو إلى التعزى عنه سبيل. وأما هذه الكثرة الكثيرة من المثقفين الذين لم يلقوه ولم يستمتعوا بمحضره، ولم يقولوا له ولم يسمعوا منه، ولم ينعموا بفكاهته الحلوة ودعابته الرائقة ونادرته الحاضرة، وإنما سمعوا عنه من بعيد أو قرءوا له بين حين وحين، فان أمرهم معه كأمرهم مع غيره من الكتاب والشعراء والعلماء، يستمتعون حين يتاح لهم المتاع، ويرضون عما استمتعوا به عجلين، ثم ينصرفون إلى غيره عجلين أيضا، يطلبون اليهم كثيرا أكثر مما يطيقون، ولا يعطونهم من أنفسهم إلا قليلا أقل مما يستطيعون.

إن المثقفين جميعا يؤمنون بأن حافظا كان شاعرا فحلا ، وبأن عبد العزيز كان كاتبا ممتازا ، وبأن على إبراهيم كان جراحا متفوقا . قد أقروا ذلك فى أنفسهم ، وسجلوه فى قلوبهم ، وآمنوا به عن علم أو عن غير علم ، ثم لم يزيدوا على ذلك . فكم عدد الذين يطيلون القراءة فما نظم حافظ ، وما كتب عبد العزيز ، ويطيلون التفكير فيما امتاز به على إبراهيم

لم يمض ربع قرن على وفاة حافظ ، والناس يعدونه الآن شاعرا من الشعراء البارعين كما يعدون الشعراء القدماء . ولم تمض إلا أعوام قليلة على وفاة عبد العزيز ، والناس يعدونه كاتبا مجيدا كما يعدون غيره من الكتاب القدماء . ولم يدر العام بعد على وفاة على إبراهم والناس يؤمنون له بالتفوق فى الجراحة والطب ثم لا يزيدون على ذلك شيئا .

وقد يكون هذا ملائما لطبيعة الأشياء ؛ فالموت يلغى الزمن بالقياس إلى الموتى . ومن مات مات . وأفهم من هذه الجملة ما تستطيع أن تفهم . مات بالقياس إلى نفسه ، ومات بالقياس إلى أكثر الناس ، وربما مات إلى أشد الناس اتصالا به وقربا منه .

مات ولم تبق منه إلا هذه الذكرى التى تظل مضطربة متأججة فى بعض القلوب حتى تخمد حين تكف هذه القلوب عن الخفقان ، وتظل فى سائر القلوب أشبه شىء بهذه الأسماء التى تكتب على اللافتات ، ينظر الناس إليها أحيانا ، ويمرون بها معرضين عنها فى أكثر الأحيان . لا يتعمدون النظر إليها إلا إن احتاجوا إليها ليستعينوا بها على التماس ما يبتغون من طريق . فالذين يؤرخون الأدب الحديث سيتعمدون تذكر حافظ وعبد العزيز وإطالة التفكير فيهما . والذين يؤرخون الجراحة الحديثة سيتعمدون تذكر على إبراهيم وإطالة الوقوف عنده . وأولئك وهؤلاء سيقفون عند هؤلاء الأشخاص كما يقف المتجول فى مدينة القاهرة عند هذه اللافتة أو تلك ليتبين طريقه إلى الغاية التى يريد أن يصل إليها .

ولست أدرى أخير هذا أم شر ، ولكنى أعلم أنه الحقيقة الواقعة من جهة ، وأكاد أعتقد أنه العقوق ، وأن هذا النوع من العقوق قد ركب فى طبائع الناس ، فهم يسرعون إلى نسيان من أحسن إليهم ، وهم يضيعون على أنفسهم بهذا النسيان منافع كثيرة ومتاعاً عظيما . وآية ذلك أنك تقرأ

الأثر القديم الذى مضت عليه القرون الطوال من آثار الأدباء والعلماء ، فتجد اللذة كل اللذة والنعيم كل النعيم ، وترثى للذين لم يقرءوا هذا الأثر من هذه الأجيال التى لاتحصى ؛ لأنهم لم يقرءوه ولم يستمتعوا به . فالذين لا يقرءون اليوم حافظا ولا عبد العزيز قد دفعوا إلى هذا العقوق الذى ركب فى طبيعة الناس ، فأضاعوا على أنفسهم شيئا كثيرا ، ما أجدرهم ، لو أحسنوا التفكير والتقدير ، أن يستدركوه ولا يفرطوا فيه .

وقد كنت من المفتونين بحديث عبد العزيز حين يتحدث ، ومن المفتونين بآثاره حين يكتب . وقد توسلت إليه حين أزمع نشر « المختار » أن يأذن لى بتقديمه إلى الناس . وشهد الله ما تكلفت ولا تزيّدت ، وشهد الله ما جاملت وما صانعت ، وإنما علمت فقلت بعض ما علمت ، ورضيت فقلت أيسر ما يوجبه الرضا .

وإنى لأرانى مع عبد العزيز فى تلك الغرفة التى كان صديقنا على عبد الرازق قد استأجرها فى ربع من ربوع خان الخليلى وكنا نلتقى فيها حين نتفرق عن دروس الفقه وحين يرتفع الضحى لنقرأ بعض كتب الأصول أو بعض كتب البلاغة . وكان عبد العزيز يلهينا بدعابته وفكاهته عن جد البلاغة والأصول . ثم لم يلبث أن ضاق بهذا الجد فانسل منه كما تنسل الشعرة من العجين ، ودون أن يلقى كيدا . وأقمنا نحن على هذا الجد ننفق فيه حياتنا ، ونزعم لأنفسنا أننا كنا نغذو به العقول والقلوب . وإنى لأرانى مع عبد العزيز وعلى عبد الرازق فى هذه الغرفة نفسها بعد أن تصلّى العصر ، نقرأ معا كتاب الكامل للمبرد ، نحصّل بهذه القراءة الأدب كما كنا نحصل البلاغة والأصول بقراءة الضحى . وكان مزاح عبد العزيز وتندره يصرفاننا عن هذا التحصيل كما كانا يصرفاننا عن ذاك . ثم لم يلبث أن انسل من هذا التحصيل كما تنسل الشعرة من العجين ودون أن يلقى كيدا . ذلك لأنه ، رحمه الله ، كان أقل الناس حباً للاستقرار وميلا إلى الامعان فى طريق واحدة . فطر على حب التنقل ، على حب التنقل المادى والمعنوى جميعاً . فكنت تراه مصبحا فى هذا الحى من أحياء القاهرة فى الأزهر أو قريباً منه ، فاذا صليت الظهر رأيته فى حى آخر من أحياء القاهرة ملما بدار الكتب أو قريبا منها فى قهوة من قهوات باب الخلق .

فاذا صليت العصر رأيته فى حى آخر من أحياء القاهرة فى قهوة من هذه القهوات التى كان الأدباء يختلفون إليها فى حى الأزبكية . فاذا صليت العشاء الآخرة رأيته فى غير حى من أحياء القاهرة ، تلقاه عند آل عبد الرازق فى عابدين ، وتلقاه عند غيرهم من ذوى المكانة والجاه ، وقد تلقاه فى قهوة من قهوات الناصرية مع جماعة من الأدباء صدرهم حافظ إبراهيم رحمه الله . كل ذلك حين كنا طلاباً قبل أن تشب الحرب العالمية الأولى ، وقبل أن تتغير الدنيا ويتحضر هذا الجيل من أجيال المصريين بعد انقضاء الحرب الأولى وشبوب الثورة الوطنية واشتجار الخلاف بين السعديين والعدليين ، وانتقال مركز النشاط لهذا الجيل إلى مكان آخر من مدينة القاهرة . فكنت ترى عبد العزيز فى ذلك الوقت فى « بار اللواء » أثناء الأصيل ، وفى « الكافيه ريش » حين يقبل الليل ، وفى الأهرام أو غير الأهرام من دور الصحف حين يتقدم الليل . وربما رأيته أثناء النهار أو أثناء الليل عند هذا العظيم أو ذاك من عظماء العدليين .

ثم تتغير الدنيا مرة أخرى ويأتلف المختلفون ويتفق المختصمون فاذا عبد العزيز يغشى مجالس السعديين وأنديتهم كما كان يغشى مجالس العدليين وأنديتهم . ولكنه على كل هذا التنقل وعلى كل هذا الاضطراب بين أحياء القاهرة كان يثبت على مكان واحد يختلف إليه مهما تكن الظروف والأحداث ليلقى فيه على إبراهيم وأصحابه ساعة من ليل .

وفطرت نفسه على حب التنقل المعنوى ، فكان يشارك فى علوم الأزهر طائعاً أو كارهاً . وماذا يصنع وهو ابن شيخ الاسلام وقد سلكه أبوه رحمه الله مع الأزهريين فى نظام واحد وكان يشارك فى أدب القدماء وفى أدب المحدثين وكان يلم بالأدب الأجنبى إلماماً قصيراً من بعيد . وكان يحاول أن يتعلم اللغة الفرنسية ويعرف منها أطرافا ويتندر بها فى حديثه العذب . وكان قد أدمن قراءة « الأغانى » ففصح لسانه إلى أبعد غاية من غايات الفصاحة وآثر فى حديثه جزالة اللفظ ، وأعانه صوته المتين الملىء على التضخيم والتفخيم والترصين . وكان من أروع ما يروعك حين تسمع إليه متحدثا بلغة الجاحظ وأبى الفرج أن تستخفك اللفظة الفرنسية قد انزلقت بين هذا الكلام

العربى الرصين المتين من حيث لا تدرى أنت ولا يدرى هو .

ثم يريد الله أن تعدو العوادى ، وأن تدلهم الخطوب ، وأن نفقد عبد العزيز على غير توقع لفقده ، وإذا نحن نحرم هذا المتاع الغريب النادر الذى كنا نجده حين نتحدث إليه ونستمع له وإذا نحن مضطرون إلى أن نستحضر حديثه بقراءة ما ترك لنا من الآثار ، نقرأ ويخيل إلينا أننا نسمعه يتحدث ، فنجد ذلك مزاجا غريبا من اللذة الأليمة والسرور الحزين .

ثم يتحدث إلىّ أحد أصدقائى ذات يوم بأن لعبد العزيز آثاراً لم تجمع فى كتاب ، نشر بعضها فى المجلات وأذيع بعضها فى « الراديو » وأعد بعضها للنشر أو للاذاعة ، وكان عبد العزيز يهيئها كلها لتجمع فى سفر أو سفرين ، فأعجله الموت عن ذلك .

فلا أكاد أسمع هذا النبأ حتى ألح على صديقى فى أن يصل الأسباب بينى وبين هذه القطوف ، فيتاح لى ذلك . فلا أقرأ ولا أستقصى ، وإنما أزمع نشر هذه الفصول وفاءً بما لهذا الأديب العظيم من حق ، ورعاية لما لهذا الصديق الكريم من حرمة .

لا أقرأ ولا أستقصى إجلالا لآثار عبد العزيز أن تقرأ أو تستقصى قبل أن تقدم إلى المطبعة ؛ فقد كان راضيا عنها ، وهذا يكفى . تطبع هذه القطوف وترسل إلىّ فى فرنسا ، فأخلو إليها فى هذه القرية النائية من قرى الجبل أياما ، فلا أشك فى أنى لم أخطىء حين وثقت برأى عبد العزيز فى قطوفه ؛ فهى الأدب كل الأدب ، وهى الفن كل الفن ، وهى الكلام الذى يجمع إلى رصانة الأدب القديم وجزالته خصب الأدب الحديث وثروته . وهى على ذلك كله إذا ضمت إلى ما جمع من آثار عبد العزيز صورة فذة لا نظير لها فى الأدب المعاصر . فهى فصل مستقل من تاريخنا الأدبى يصوّر لوناً من ألوان هذا التاريخ لا نجده عند كاتب آخر من كتابنا المعاصرين ، لا أكاد أستثنى منهم إلا صديقنا المازنى .

فعبد العزيز أشد كتابنا المعاصرين عكوفا على حياتنا المصرية ، وعلى حياة القاهرة خاصة ، وعلى حياة الطبقة الوسطى من أهل القاهرة بنوع أخص . وهو أشد كتابنا نفوذاً إلى دقائق هذه الحياة وسرائرها ، وأشدهم تمثلا لخلاصتها ، قد خالطت نفسه ، ومازجت دمه ، وانطلقت على لسانه حين كان يتحدث ، وجرت مع

قلمه حين كان يكتب . فهى أصدق مرآة وأصفاها للحياة المصرية فى عصر الانتقال . وقد كان عبد العزيز رحمه الله يحب أن يصور المعاصرين ويجلو صورهم فى فصول رائعة كانت تنشر بعنوان « فى المرآة » ثم جمعت بعد ذلك فى سفر أرجو ألا يكون قد انقطع من أيدى الناس .

فاقرأ « قطوفه » هذه ، فسترى فى كل فصل من فصولها مرآة مصقولة صافية صادقة أدق الصدق ، لاتعكس صورة فرد من الأفراد ، و إنما تعكس صورة بيئة من البيئات ، أو جماعة من الجماعات ، أو لون من ألوان التفكير المصرى ، أو فن من فنون السيرة المصرية فى هذا الطور أو ذاك من أطوار الحياة . فاذا فرغت من قراءة هذه « القطوف » فقد استقرت فى نفسك صورة كاملة شاملة دقيقة لحياة مصرية ذهب أكثرها وبقى أقلها ، ولحياة مصرية جديدة ناشئة لم يتم تكوينها بعد ، ولكن عبد العزيز سبق بذكائه النافذ وملاحظته الدقيقة إلى التنبؤ بحقائقها و بما سيختلف عليها من الأطوار .

وكنت أقدر أن رعاية حرمة الأدب والوفاء بحق الصديق هما اللذان قد دفعانى إلى نشر هذا السفر ، فاذا أنا أقرأ ثم لا أشك فى أنى قد أهديت بنشره طرفة من أقوم الطرف وأشدها إمتاعا إلى المثقفين من قراء العربية عامة وإلى الشباب منهم خاصة . فما أعرف أن كاتباً من الكتاب المعاصرين أتيح له من التوفيق مثل ما أتيح لعبد العزيز فى هذه الفصول التى تسجل من من حياتنا ما كاد يضيع ، وتسجله فى أروع لفظ وأبرعه وأجزله وأمثله ، وما أشك فى أن كثيراً من هذه القطوف لو ترجم إلى بعض اللغات الأوربية لفتن به كثير من أهل الغرب فتونا .

ولو علمت أنى أستطيع أن أشير على وزارة المعارف فتسمع منى وتقبل مشورتى لأشرت عليها فى أن تجعل كتب عبد العزيز البشرى ، وهذا الكتاب منها خاصة ، بين الكتب التى تدرس فى المدارس الثانوية ؛ فما أعرف أقدر منه على تحبيب الأدب العربى إلى الشباب وتزيينه فى قلوبهم ، وإقناعهم بأن لغتنا الفصيحة القديمة تستطيع أن تؤدى من المعانى والأغراض ما تقتضيه الحياة الحديثة دون أن يمسها من ذلك نصب أو لغوب .

رحم الله عبد العزيز ، وهيأ

للأدب العربى من يقوم مقامه . ولولا الثقة بالله لقلت كما قال الحجاف فى العصر القديم : « وما أراه يفعل » . ولكن قدرة الله وسعت كل شئ ، ورحمته وسعت كل إنسان ؛ فليعوض الله من عبد العزيز خيراً ، وليسبغ الله على عبد العزيز رحمة ونعمة وثوابا .

كتاب السياسة لارسطاطاليس ترجمة الأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد باشا

(لجنة التأليف والترجمة والنشر)

أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد باشا ، داعية أرسطاطاليس فى الشرق الحديث ، كما قال صديقنا الدكتور محمد كامل حسين بك. ولكنه داعية الفلسفة بوجه عام ، والفلسفة السياسية خاصة قبل أن يكون داعية لأرسطاطاليس . عرفنا ذلك منذ عرفناه فى أوائل هذا القرن حين كنا نختلف إليه مع أترابنا فى الجريدة ، فنسمع منه أحاديث كانت تقع من نفوسنا أغرب المواقع وأشدها إثارة لحب الاستطلاع . فقد كنا نسمع منه أسماء غريبة لم يكن المعممون يسمعونها فى الأزهر ، ولم يكن المطربشون يسمعونها فى مدارسهم الثانوية والعالية . كنا نسمع أسماء مونتسكيو وفولتير ، وجان جاك روسو ، وديدرو ، وإيمانويل كانت ، وأوجوست كونت ، وستيوارت مل ، وجول سيمون ، وسبنسر . وربما سمعنا منه أسماء ديكارت ، وليبنتز ، ومالبرانش ، وسبينوزا . وكانت هذه الأسماء تثير فى نفوسنا عجبا وإعجاباً فى وقت واحد . كانت تثير العجب لوجود طوائف من العلماء والفلاسفة لم يكن يخطر لنا وجودهم على بال ، ولوجود ألوان من العلم والفلسفة لم نكن نقدر أن وجودها شئ ممكن أو معقول . فقد كنا نحسب أن العلم كله فى الأزهر أو أن العلم كله فى المدارس المدنية ، فاذا هذا الرجل الساحر يظهر لنا أن الأزهر والمدارس والمعاهد العالية لم تكن تعلمنا من العلم إلا أقله وأيسره ، ويفتح لنا آفاقا ما كنا نقدر أنها ستفتح لنا فى يوم من الأيام .

وقد أحس إقبالنا على هذه الألوان من المعرفة ، وعجزنا عن أن

نبلغ حاجاتنا منها ؛ فأزمع أن يعلمنا من ذلك ما لم نكن نتعلم فى الأزهر والمدارس ، وسلك إلى تعليمنا طريقين : إحداهما طريق الأحاديث والحوار ، كما كان سقراط يعلم شباب الآتينيين ، والمحاضرات المنظمة التى كان يلقيها هو أو يلقيها بعض أصحابه من الكبار حين يقبل المساء ، فى موضوعات بعينها تمس فلسفة السياسة ونظم الحكم. والطريق الأخرى هى الطريق الحديثة التى يسلكها العلماء المعاصرون إلى تثقيف الشباب وتمرينهم . فقد كان يتخير الذين يحسنون اللغة الفرنسية أو الانجليزية ، ويعطيهم بعض الكتب اليسيرة ويكلفهم أن يحاولوا ترجمتها وأن يظهروه على نتائج هذه المحاولة بين حين وحين . بحيث كانت الجريدة فى أول النهار وفى أول الليل إرهاصا بالجامعة قبل أن تنشأ الجامعة ، و بكلية الآداب قبل أن توجد كلية الآداب .

وكان أحمد لطفى السيد قد اتصل منذ شبابه الأول بالأستاذين الاماميين جمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده . واتصل كذلك بآخرين من شيوخ الأزهر الممتازين ، فدفعه هذا الاتصال إلى أن يعنى بالفلسفة الاسلامية ، ويقرأ المنطق والكلام ، وما بعد الطبيعة ، ويتحدث إلى الأزهريين بلغة الأزهر ، وإلى المثقفين المدنيين بلغة الثقافة المدنية . ولعل الذين يحققون تاريخ الأدب العربى فى آخر القرن الماضى وأول هذا القرن ، ينتهون إلى أن لطفى السيد هو الذى وفق للملاءمة الرائعة بين لغتى هاتين الثقافتين . فقد كنا نحن الأزهريين نكاد نطير فرحاً حين كنا نسمع منه ألفاظ الجنس والفصل والخاصة والقول الشارح ، والجوهر ، والعرض ، والمقولات ، نجد فى ذلك شيئاً من الأنس إلى هذا المطربش المترف لم نكن نجده عند غيره من المطربشين المترفين . كنا نأنس إليه حين يحدثنا بلغتنا ونعجب به حين يحدثنا بلغة الثقافة الأوربية . وكان أترابنا من شباب المدارس يأنسون إليه حين يحدثهم بلغة الثقافة الحديثة ، ويعجبون به حين يحدثهم بلغة الأزهر ، وكنا نلتقى جميعاً فى الاعجاب به والأنس إليه .

وقد كنا نحن الأزهريين نعرف اسم أرسطاطاليس لكثرة ما كنا نسمعه فى دروس المنطق والفلسفة والتوحيد . ولكنا لم نكن نعرف من أرسطاطاليس إلا أنه فيلسوف يونانى يحسن الكلام عن الهيولى والصورة ، وعن الجوهر والعرض ، وعن الموجود والمعلوم ، وعن الحد والرسم والقياس .

وإذا لطفى السيد يظهرنا على أن أرسطاطاليس هذا يحسن أشياء أخرى كنا نفتن بها فى ذلك الوقت أشد الفتنة ، وهى الأخلاق والسياسة . وقد فتنتنا سياسة أرسطاطاليس فتنة لم نجد مثلها بالقياس إلى الأخلاق . فقد كنا نسمع حديث الأخلاق فى الأزهر ، وكان الممتازون منا يقرءون كتاب ابن مسكويه ، فأما السياسة فشىء لم نفكر فيه ولم يخطر لنا على بال ، بل كنا إذا سمعنا لفظ السياسة تصورنا معنى غامضا من هذه المعانى الغامضة التى كان العلم بها مقصورا على فريق قليل جدا من الخاصة بل من خاصة الخاصة .

ولم يكن شىء يخلب ألبابنا كما كانت تخلبها ألفاظ الديمقراطية والأرستقراطية والايلوجاركية ؛ فقد كانت هذه الألفاظ تقع من آذاننا مواقع شاذة غريبة ، وتنزل من نفوسنا منازل الشغف والحب ، وكنا نجد شيئا من الصعوبة فى النطق بها على وجهها ، وكثيرا من العذوبة فى النطق بها مصححة أو محرفة . وكنا ربما تشدقنا بهذه الألفاظ فى بيئاتنا الأزهرية الخاصة ، نظهر لزملائنا أنا نحسن من العلم ما لم يعلموا ، ونلقى من لا يتاح لهم لقاؤهم من الناس . وكنا على ذلك نتكلف أشد الكلف بأن نعلم علم أرسطاطاليس هذا وأصحابه الذين كنا نسمع أسماءهم فى الجريدة من الفرنسيين والانجليز والألمان . ثم تمضى الأيام ، ويتفرق هؤلاء الشبات عن أستاذهم ، وتختلف بهم مذاهب الحياة متباعدة حينا ومتقاربة أحيانا ، حتى إذا انجلت غمرة الحرب العالمية الأولى ، عاد كثير من هؤلاء الشباب إلى لقاء أستاذهم فاستمعوا له وتحدثوا إليه ، وإذا هو لم ينس أرطاطاليس ولم يعرض عنه ، وإنما ازداد به كلفا وله معاشرة وعليه عكوفا . فهو لا يكتفى بالتحدث عن أرسطاطاليس إلى أصحابه وتلاميذه ، وإنما هو يعكف على ترجمة أرسطاطاليس يترجمه لنفسه أولا ؛ فهو يجد اللذة كل اللذة فى الخلوة إلى هذا الفيلسوف العظيم . ويترجمه للمثقفين ثانياً ؛ فهو أبعد الناس عن الأثرة وأشدهم ترفعاً عن اختصاص نفسه بما يمتع القلوب والعقول . وهو مؤمن بعد ذلك بأن النهضة العربية الحديثة لن تستقيم لها الطريق ولن تبلغ غايتها إلا إذا اعتمدت على نفس الأسس التى اعتمدت عليها النهضة العربية القديمة ، وهى الثقافات الأجنبية التى يسيغها المثقفون إلى ما أساغوا من التراث العربى الخالص ،

ويصنعون منها ومن هذا التراث مزاجا معتدلا يغذون به الأجيال التى تأتى بعدهم من الناس . وإلا إذا قامت على نفس الأسس التى قامت عليها النهضة الأوربية الحديثة ، وهى الرجوع بحياة العقل إلى أصولها الأولى ، ووصل ما انقطع من الأسباب بين التفكير الحديث والتفكير القديم .

وهو مؤمن بعد هذا وذاك بأن للغة العربية على أبنائها حقوقاً يجب أن تؤدى ، وحرمات يجب أن ترعى . وأهم هذه الحقوق والحرمات أن تغنى هذه اللغة بعد فقر ، وتخصب بعد جدب ، وترقى بعد انحطاط . وسبيل ذلك أن تعى كل ما وعته اللغات الراقية الكبرى من ضروب العلم والأدب والفلسفة ، بحيث لا يقع شئ من ذلك موقع الغرابة والشذوذ من الذين يحسنون هذه اللغة ولا يحسنون غيرها من اللغات . وكان يحدثنا بأن من الاسراف الشديد على الناس أن نكلفهم جميعاً درس اللغات الأجنبية والتصرف فيها قديمها وحديثها ، ليظهروا على ما أنشئ فيها من الآثار ، وأن من الظلم الشديد للناس ألا تتيسر لهم وسائل العلم بما تنتجه العقول على اختلاف العصور من ضروب المعرفة وفنون الثقافة . وكان يحدثنا بأن القدماء من المسلمين قد فطنوا لهذا كله ، فأدوا إلى اللغة حقها وأدوا إلى أصحاب اللغة حقوقهم ، ونقلوا من ثقافات العالم القديم ما استطاعوا أن ينقلوا ؛ فما ينبغى للمحدثين أن يقصروا فيما لم يقصر فيه القدماء . وكان يتقدم إلينا فى أن يترجم كل منا ما يستطيع ترجمته من اللغة الأجنبية التى يحسنها إلى اللغة العربية ، ثم يقول فى تواضع مبتسم : أما أنا فموكل بسيدنا أرسطاطاليس .

وأحمد لطفى السيد باشا رجل وفىّ لسيدنا أرسطاطاليس هذا ، لم تشغله عنه الشواغل مهما تكن ومهما تختلف : صحبه فى باريس حين أقام مع الوفد فى باريس ، واستراح إليه بعد عودته إلى القاهرة من لغط الحياة السياسية ومن خطوب المناصب العامة التى وليها . لم تصرفه عن أرسطاطاليس إدارة دار الكتب المصرية ولا إدارة الجامعة ولا الوزارات المختلفة التى نهض بأعبائها ولا عضويته لمجلس الشيوخ ولا رياسته لمجمع فؤاد الأول للغة العربية . وإنما كان يستريح من هذه الأعباء كلها إلى أرسطاطاليس وربما استعان على هذه الأعباء كلها بأرسطاطاليس . وهو من أجل ذلك قد أخرج من كتب أرسطاطاليس

أجلها خطراً وأعظمها شأناً وأبقاها أثراً : أخرج الأخلاق ، والطبيعة والكون والفساد ، وهو الآن يخرج السياسة . ومن يدرى ما الذى يحاول أن يخرج بعد أن فرغ من ترجمة السياسة ؟ وقد رأيته فى الصيف الماضى يحاول أن يؤلف من حوله جماعة من شباب الفلاسفة المصريين ليعيد معهم النظر فيما ترجم المسلمون القدماء من منطق أرسطاطاليس .

وأحمد لطفى باشا يعلم — ولا يخفى — أن أقوَمَ الترجمة ما نقل عن الأصل مباشرة . ولكنه يعلم أن العرب قد نقلت لهم آثار اليونان من طريق السريانية لقلة الذين كانوا يحسنون اليونانية أيام العباسيين ، وأن الذين كانوا يحسنون اليونانية حين بدأ هو بترجمة أرسطاطاليس كانوا لايوجدون إلا فى الوهم والأمل . فلم يكن من الممكن ولا من المعقول أن ينتظر بترجمة أرسطاطاليس حتى يوجد الشباب الذين يحسنون اليونانية ويحاولون الترجمة منها مباشرة . وهو يرى أن شيئاً خير من لا شئ ، وأن ما وسع المسلمين فى العصر العباسى ، والأوربيين فى القرون الوسطى ، يمكن أن يسع الشرقيين المحدثين فى هذه الأيام . وقد أنفق لطفى باشا جهوداً عظيمة موفقة ، يحفظها له التاريخ الجامعى المصرى ، فى إعداد جيل من الشباب يحسنون من اليونانية واللاتينية ما لم يحسن القدماء . وهو يرى الآن هؤلاء الشباب يستقبلون نشاطهم الخصب ، فيشعره ذلك رضا واغتباطا ، ولكنه لا يمنعه من المضى فيما استأنف من ترجمة أرسطاطاليس على النحو الذى ألفه . وما أشك فى أنه سيكون أشد الناس تشجيعاً لمن يريد من الشباب أن يترجم كتب أرسطاطاليس هذه من اليونانية ترجمة مباشرة . والشئ المحقق هو أن هذه الكتب التى ترجمها ، وهى من أقوم الآثار التى تركها أرسطاطاليس إن لم تكن أقومها . قد أصبحت الآن بفضل لطفى باشا ، قريبة المتناول من الذين يستطيعون أن يقرءوها فى أصلها اليونانى أو فى تراجمها إلى اللغات الأوربية الحديثة . والشئ المحقق أيضاً ، هو أن أستاذنا لطفى باشا السيد ، وأستاذنا عبد العزيز باشا فهمى ، يعلّمانا ويعلمان الأجيال الناشئة من الشباب كيف يكون الاخلاص فى ذات الثقافة ، والنهوض بأعباء المعرفة ، والتوفر على ما ينفع الناس ، فى غير ضجيج ولا عجيج ولا إعلان ، بل فى غير شعور بأنهما يتكلفان جهداً عنيفاً

لم يتعـود أمثـالها أن يتكلفوه . وما أحب أن أسوء أحداً ، وما أحب أن أغيظ أحداً ، وما أحب أن أسر هـذين الأستاذين الجليلين ، و إنما أحب أن أقول الحق ؛ لأن الحق يجب أن يقال مهما تكن الظروف . والحق الذى أريد أن أقوله هو أن لهـذين الأستاذين العظيمين مكانة ممتازة بين أمثالها من أصحاب المكانة الرفيعة فى مصر ، هؤلاء الذين يعنون بالسياسة والمال والاقتصاد ، ويستريحون من هـذا كله إلى الفراغ ولهو الحديث ، والاكتفاء بأنهم أصحاب التفوق فى السياسة والمال والاقتصاد ، ثم يتركون هذه الدنيا بعد أعمار أرجو أن يمد الله فيها ، فيذكر الناس أنهم كانوا من أصحاب السياسة والمال والاقتصاد ، ثم لا يزيدون على ذلك شيئاً .

أما هذان الأستاذان الجليلان ، فقد شاركا أمثالها فيما يضطربون فيه من شؤون الحياة العامة ، ولكن أحدهما يفرغ لترجمة أرسطاطاليس ، والآخر يفرغ لترجمة جوستينيان .

ولله الأعشى حين قال :

شتان ما يومى على كورها
ويوم حيان أخى جابر

وكتاب السياسة لأرسطاطاليس ليس فى حاجة الآن إلى أن نفصل القول فيه أو نجمله ؛ فقد تغيرت حياة الناس منذ أول هذا القرن ، وعرف المثقفون ما لم نكن نعرف فى ذلك الوقت ، فاصبحوا فى غير حاجة إلى أن نعلمهم معنى السياسة كما يتصورها الفلاسفة ، ولا أن ننبئهم بأن أرسطاطاليس قد وضع فى علم السياسة وفلسفتها كتاباً خالداً فتح للانسانية آفاقا ومهد لها طرقاً ما زالت تسعى فيها الآن ، وأن هذا الكتاب قد بلغ من العمر أربعة وعشرين قرنا ، ولكنه على ذلك مازال شابًّا مكتمل الشباب ، لايقبل عالم أو فيلسوف أو مؤرخ على السياسة أو على علم الاجتماع إلا بدأ بالخلوة إليه والنظر فيه .

وكل هذه حقائق كنا نحن نجهلها فى أول الشباب ، وأصبحت بفضل لطفى السيد باشا من الأوليات التى يعرفها المثقفون من الجامعيين وغير الجامعيين. فلست فى حاجة اذن إلى أن أجمل القول فى كتاب السياسة أو أفصله ، ولا إلى أن أبين الصلة بين كتاب السياسة وما سبق اليونان إليـه فى حياتهم العاملة والمفكرة قبل أرسطاطاليس ، ولا أن أبين تأثير كتاب السياسة فيما كتب الفلاسفة والعلماء والمؤرخون وأصحاب الاجتماع إلى الآن بعد أرسطاطاليس

لست فى حاجة إلى شئ من ذلك ، و إنما أنا فى حاجة أى حاجة إلى أن أنبه الشباب من المثقفين إلى هذه القدوة الصالحة التى يقدمها هذان الأستاذان العظيمان . وفى حاجة أى حاجة إلى أن ألحّ على الشباب فى أن يقرءوا ترجمة لطفى السيد باشا لأرسطاطاليس ، وترجمة عبد العزيز فهمى باشا لجوستينيان . وفى حاجة أى حاجة إلى أن ألح على وزارة المعارف فى أن تأخذ أساتذتها وطلابها بالنظر فى هذه التراجم ، وفى أن تأخذ أساتذتها خاصة بتعليم طلابهم كيف ينظرون فى هذه التراجم ، وكيف يوازنون بينها وبين أصولها ، وكيف يتأسون بهذين الأستاذين العظيمين من أساتذة هذا الجيل ، وكيف يعرفون لها حقهما على الشباب وفضلهما على الثقافة ، وكيف يكونون من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، و يرون المثل الصالحة فيجدون التأثر والاقتداء .

ط حسين